بولس الرسائل وبولس إعمال الرسل

مقدمة

ربما نجد في قراءتنا لكتاب أعمال الرسل من ناحية، ولرسائل القديس بولس من ناحية ثانية، بعض المسافة بين الصورة التي يرسمها لوقا لبولس من جهة، وبين تلك التي تستنتجها من كتابات بولس نفسه في رسائله، من جهة ثانية. هذه المسافة، أدّت بالبعض إلى التشكيك بحقيقة الشخص الذي رسم لوقا معالمه، فميّزوا بين "بولس أعمال الرسل" و"بولس الرسائل". لكن قراءة معمّقة لكتاب الأعمال إن على الصعيد اللاهوتي، أو على الصعيد الأدبي تظهر بأن "بولس الأعمال"، كما يقدّمه القديس لوقا، ليس غريبًا عن شخصيّة الرسول التاريخيّة.

بولس كتاب الأعمال

يخصّص لوقا في كتابه ثلاثة نصوص لحدث اهتداء شاول الطرسوسي (أع ٩؛ ٢٢؛ ٢٦)، فيقدّمه تحت ملامح "يهودي مرتدّ"، جاعلاً من اللقاء على طريق دمشق حدثًا مؤسّسًا في مسيرة الرسول، ومن اهتدائه إلى المسيح عنصرًا أساسيًا في بناء شخصيّته. لكن لوقا أضاف إلى هذا الحدث ملاحظات ثلاث تعطي معنى لمسيرة بولس كما يقدّمها في كتاب الأعمال. فبولس أولاً لم يخن إيمان آبائه عندما تحوّل إلى شاهد ليسوع المسيح القائم من الموت، بل أجاب على دعوة الرب له، كما فعل الأنبياء من قبل؛ وهو ثانيًا، بحمله البشارة إلى الوثنيين، تمّم الرسالة التي تلقّاها من المسيح، فتمّم بالتالي رسالة شعب الله المدعو ليكون "نورًا للأمم"؛ وبولس ثالثًا، بمعارضته الأعداء، يقترح على الجماعة، التي ستتلقّى كتاب أعمال الرسل، بأن تفهم تاريخها لاهوتيًا، على نور الكتب.

أي رسول هو بولس؟ إنه بالطبع اليهودي المرتدّ، لكنّه الرسول الذي بشّر بالجديد الجذري، جديد الله الذي أقام يسوع من الموت، وهو بالتالي الرسول الذي شجب الطقوس الوثنيّة الباطلة. وبولس هو الرسول الذي أعلن سيادة الله الخالق على الإنسانيّة بأكملها. وبولس هو من أسمَعَ، وبشكل طارئ، صوت الله الذي يدعو البشر للعودة إليه والتعرّف إلى برّه، من خلال يسوع القائم من الموت. مجرّد قراءة سريعة لكتاب أعمال الرسل، تكشف لنا أن بولس شخص دائم الترحال. فهذا الرسول، الذي يحتلّ أكثر من نصف سفر الأعمال، هو إنسان لا يستقرّ في مكان.

تبدأ قصّة رحلاته منذ اهتدائه (أع ٩:١-٣١)، سنتبعه من أورشليم إلى دمشق ثم إلى أورشليم، فقيصريّة وصولاً إلى طرسوس. وفي رحلته الرسوليّة الأولى مع برنابا ويوحنا ومرقس (أع ١٣-١٤)، ينطلق من أنطاكيا سوريا، إلى سلوقية فقبرص (سلامين ثم بافس)، فبرجة، وأنطاكيا بسيدية، وإيقونيوم، ولسترة، ودربة، قبل أن يعود سالكًا الطريق إياها: لسترة، إقونيوم، أنطاكيا بسيدية، برجة، ومنها إلى أطاليا فأنطاكيا سورية.

وتوجّهت رحلته الرسوليّة الثانية إلى الوثنيين برفقة سيلا، ثم تيموتاوس (أع ١٥:٣٦-١٨)، فانطلق من أنطاكية سوريا إلى كيليكية فدربة ولسترة (فريجية وغلاطية)، وترواس ومنها نحو البلاد الأوروبيّة: ساموتراس وينابوليس وفيليبي وأوفيبوليس وأبولونية وتسالونيكي وبيرية وأثينا وكورنتس وأفسس قبل أن يعود إلى قيصريّة فأنطاكية سورية.

وهدفت رحلته الرسوليّة الثالثة إلى تشديد الجماعات وتثبيتها، فانطلق كالعادة من انطاكية سورية إلى أفسس، فاليونان ومكدونيا وترواس وميليتس ورودس، قبل أن يعود إلى صور فقيصريّة ثم القدس، حيث أوقِف وسُجن.

أما رحلة السجن في روما، فانطلقت من أورشليم القدس إلى قيصريّة فصيدا وقبرص وميرة والمرافئ الآمنة، حيث تعرّضوا للغرق، فمالطا وسيراكوزا وبوطيول ثم روما.

وينهي لوقا كتابه دون أن يختم النص، بل يتركه مفتوحًا على المستقبل، وكأنه بذلك يعلن أولاً، بأن مغامرة بولس في روما، هي بداية كتابة تاريخ جديد؛ ويدعو قرّاءه ثانيًا، إلى تحمّل مسؤوليّة الشهادة للمسيح، فيحقّقوا بذلك كلمة الرسول بولس، بخلاص البشريّة كلّها، بحسب وعد الرب لشعبه.

في بنائه لشخصيّة بولس على هذا الشكل الأدبي، استند لوقا إلى قراءة لاهوتيّة للتقاليد التاريخيّة المتعلّقة برسول الأمم، للدلالة على حضور تراثه الحيّ في جماعته. وكما يظهر من كامل الكتاب، لم يبتعد لوقا عن هذه التقاليد لأنه عرف كيف يمزج في نصّه الأسلوب الوثائقي مع التفسيري والشعري.

انطلق شاول الشاب من أورشليم إلى دمشق، ليَسجُن المؤمنين بيسوع. وانطلق شاول الشيخ من أورشليم ليُسجن في روما باسم يسوع. بين هذين الانطلاقين، كم قطع من مسافات وكم سار من طريق! كانت أنطاكية سوريا مركز انطلاقه الدائم. في البداية حمل كلمة الله في البلاد التي يعرفها. فهو من طرسوس، والمدن التي زارها في رحلته الأولى قريبة من بلاده نوعًا ما. بعدها توغّل في أراضٍ بعيدة على الشاطئ الغربي من آسيا الصغرى، وما تردّد أمام دعوة الروح له للالتزام في مرحلة جديدة. فالحلم في ترواس (أع ١٦:٦-١٠)، ليس في نظره سوى دعوة من الرب ليحمل كلمة إلى العالم اليوناني الذي ينتظر الخلاص. في هذه المدن اليونانيّة الكبرى: فيليبي، تسالونيكي، أثينا، كورنتس، لم يبقَ بولس سوى وقتًا كافيًا لإعلان الكلمة، وتأسيس جماعات مؤمنين وتنظيمها. كانت هذه الجماعات قليلة العدد. ففي فيليبي كانت الكنيسة من أصل يهودي

تجتمع في منزل ليديا (١٥:١٦)؛ فيما كانت الكنيسة من أصل وثني تجتمع في بيت حارس السجن الذي اهتدى (٣٤:١٦).

ما سافر بولس مرة وحيدًا. بدأ رحلاته برفقة برنابا (٣:١٣)، لكنّه سرعان ما صار الأوّل. اختلفا في بداية الرحلة الثانية (٣٦:١٥-٣٩)، فاتّخذ بولس من سيلا وتيموتاوس مرافقَين له. وفي الرحلة الثالثة صار له مرافقين من الجماعات التي أسّسها (٤:٢٠). وفي رحلة الأسر أيضًا كان عنده من يرافقه، وكأنه في رحلة رسوليّة (أع ٢٧)

فما معنى هذه الرحلات؟ يعطي لوقا الجواب في نهاية كتابه: "مكث بولس سنتين كاملتين في منزل خاص استأجره، يستقبل جميع الذين كانول يأتونه، يعلن ملكوت الله ويعلّم بكلّ جرأة ما يختصّ بالرب يسوع المسيح، لا يمنعه أحد" (أع ٣٠:٢٨-٣١). تابعت الكلمة رحلاتها عبر الأجيال، فوصلت إلى "أقاصي الأرض" (أع ٨:١)، حتى وصلت إلينا. وهي اليوم تدعو "رحّالة" آخرين يحملونها الى حيث لم تصل بعد.

"أعبر إلى مقدونية، تعال وأنجدنا" (أع ٩:١٦). من عالم إلى آخر، عبرت كنيسة سفر الأعمال مع بولس الرسول من رحم اليهوديّة، إلى العالم الروماني – اليوناني، وبقيت متجذّرة في تربة العهد القديم. وستواجه طيلة مسيرة تاريخها، تحدّي العبور إلى عوالم وثقافات متعدّدة دون أن تفقد أمانتها لجذورها.

بولس الرسائل

أن نعرف القديس بولس هو أن نكتشف الوحدة بين هذا الرجل وبين حياته. "أن أكون رسولاً" هو "أن أتّبع يسوع"، "أن أتتلمذ للمسيح يسوع وأن أشاركه حياته وسرّه". كانت هذه قناعة بولس، ولذلك امتلكته رسالته بشكل كامل فصارت "حياته هي المسيح" (فيل ٢١:١)

تواصل بولس منذ البداية مع كنيسة أورشليم، وخاصّة مع بطرس، خلال زيارته الأولى بعد اهتدائه سنة ٣٨. منه تعرّف إلى يسوع معرفة فعليّة واقعيّة.

ثمّ زار القدس مرّة أخرى أثناء "مجمع أورشليم" الذي انعقد لدراسة مسألة حريّة الوثنيين تجاه الشريعة. قبل يعقوب دخول مؤمني الأمم في الكنيسة، دون أن يفرض عليهم الختانة، لا عن قناعة دينيّة مسيحيّة، بل عن ضرورة اجتماعيّة وسياسيّة. ففي خضمّ الأزمة التي كانت قائمة بين اليهود والرومان، كان إدخال الوثنيين في اليهوديّة، قبل قبولهم في المسيحيّة، يعني إدخال أشخاص غير موثوق بهم إلى الشعب اليهودي. ساهمت السياسة في قبول يعقوب لبولس، لكن هذا القبول بقي هشًا. هذا ما اختبره بولس أثناء "مشكلة أنطاكيا".

تأثّر موقف بطرس في أنطاكيا بمواقف المتهوّدين، مما أدّى إلى استحالة التعايش بين المسيحيين من أصل يهودي وبين من هم من أصول وثنيّة. منذ ذلك الحين، بدأت معارضة بولس الشرسة لممارسة الشريعة، حتى أنه أبعد عنها المؤمنين الآتين من اليهوديّة بحسب ما ينقله لوقا في أعمال ٢١:٢١.

مارس بولس عمله الرسولي بين السنوات ٤٠ و ٥٠ تحت مسؤوليّة كنيسة أنطاكيا، وذلك حتى رحلته الرسوليّة الكبرى التي أوصلته إلى كورنتس سنة ٥٠-٥١. كانت أنطاكيا في البدء جماعة منفتحة جدًا، لكنّها خضعت فيما بعد لتأثيرات أنصار يعقوب الرسول رئيس كنيسة أورشليم (غل ٢:١١ي). فقد اعتبر موفدوه المتهوّدون، أن لهم الحق في مراقبة البناء البولسي في غلاطية وفي فيليبي وحتى في كورنتس، وإعادته إلى الحضن اليهودي – المسيحي المتزمّت. عندها صار بولس مقتنعًا بعدم وجوب التساهل مع هؤلاء "الإخوة الكاذبين"، وولدت معارضة جذريّة للشريعة. عندها أصبح من الضروري له أن يتسلّح بوكالة رسوليّة، لا تقتصر على "رسالة توصية" من كنيسة معيّنة (٢كو ٣:١-٣)، بل على إرسال مباشَر من قِبَل المسيح القائم من الموت بالذات. على هذا الضوء، نفهم مقدّمات الرسائل التي تعود إلى ما بعد "مشكلة أنطاكيا" (باستثناء تسالونيكي)، وتشديد بولس الحازم، إن لم نقل الاستفزازي، على كونه "رسول، لا من الناس ولا بدعوة من إنسان، بل بدعوة من يسوع المسيح والله الآب" (غل ١:١).

بوصوله إلى أفسس، عرف بولس بالأزمة في غلاطية. كان غضبه كبيرًا جدًا، فقد فهم أن المتهوّدين يلاحقونه ويتعقّبون أثر أعماله، محاولين التشكيك بما يقوم به والعمل على هدم ما بناه. ربما تعود الرسالة إلى غلاطية إلى هذه الحقبة، مما يعني أنها كُتبت قبل الرسائل إلى الكورنثيين. من هذا المنطلق، تكون براهين بولس الكتابيّة، العميقة والصعبة، موجّهة إلى الرسل المتهوّدين؛ وإن فهم الغلاطيون شيئًا منها فالشكر لله!

في أفسس أُسِرَ بولس، فكتب الرسائل إلى فيليبي وإلى فيلمون وإلى كولوسي. صحيح أنها كنيسة لم يؤسّسها، لكنّه في رسالته، ينجد إبفراس العاجز أمام أزمة تسبّب فيها تيار تصوّفيّ يمجّد مسيحًا كونيًا، مترافقًا مع نسك متصلّب، وممارسة غير واعية لعبادة الملائكة، متناسيًا دور الصليب المحوري. في رسالته يعيد بولس الأمور إلى نصابها ممجّدًا بكر الخليقة كلّها الذي تمّم السلام "بدمه على الصليب" (كو ١:٢٠).

كان استقبال يعقوب للمساعدات ملتبسة. لم يدافع أحد عن بولس الذي أوقِف في ساحة الهيكل. بعد محاكمة أولى في روما، أطلِق سراحه. كانت رحلته إلى أسبانيا، سريعة جدًا. فقد تأخّرت أربع سنوات، ولم تكن جيّدة التحضير، وغير مدعومة من جماعة روما. لتعويض هذا الفشل، بدأ بولس رحلة رسوليّة جديدة في الحوض الشرقي للبحر المتوسّط. وصل إلى الليريكون (يوغوسلافيا الحاليّة) التي كان قد مرّ بها سريعًا في رحلته الثالثة (رو ١٥:١٩)؛ ثم إلى أفسس من جديد. شعر بضرورة العودة إلى روما لمساندة الجماعة المسيحيّة المصابة باضطهاد نيرون (سنة ٦٥). لكن إعلان البشارة بجرأة كان يعني وضع المسيحيّين أمام خطر

لفت انتباه السلطة الامبراطوريّة، أي الموت. أوقف بولس، فوجد نفسه وحيدًا في أسر قاسٍ جدًا. لنا في الرسالة الثانية إلى تيموتاوس صدى لمسيرة الرسول الروحيّة الأخيرة هذه. أخيرًا تحقّقت رغبته في أن "يترك هذه الحياة ليكون مع المسيح" (فيل ١:٢٣) فقُطع رأسه، عالمًا أنه بذلك يعلن أمام الملأ بأنه "حفظ الإيمان إلى الغاية".

يعرّف بولس عن نفسه كالتالي

"دُعيَ ليكون رسولاً، وأُفرد ليعلن بشارة الله" (رو ١:١)؛ "ألستُ رسولاً" (١ كور ١:٩)؛ "عبد الله ورسول يسوع المسيح ليهدي الذين اختارهم الله إلى الإيمان" (تيط ١:١)؛ "خادم يسوع المسيح لدى الوثنيين" (رو ١٦:١٥)؛ "كاهن إنجيل الله" (رو ١٦:١٥)؛ "وكيل أسرار الله" (١ كو ١:٤)؛ "معاون الله" (١كو ٩:٣)؛ "رسول الله" (٢ كو ١٧:٢)؛ "سفير للمسيح" (٢ كو ٢٠:٥)؛ "خادم الله" (٢ كو ٤:٦)؛ "خادم الإنجيل" (أف ٧:٣)؛ "معلّم الوثنيين في الإيمان والحق" (١ تيم ٧:٢)؛ "خادم المسيح يسوع" (رو ١:١)؛ "خدم من أجل يسوع" (٢ كو ٥:٤).

كيف استوعب بولس دعوته كرسول؟

اقتنع بولس أنه "**مدعو** ليكون رسولاً"، لا بواسطة تعيين من إنسان مهما علت رتبته، ولا بناء على طلبه الخاص لوظيفة رسول، بل باختيار إلهي فقط. في رسائله، يردّد رسول الأمم مرارًا أن كل حياته ثمرة مبادرة الرحمة الإلهيّة المجانيّة (١ كو ٩:١٥-١٠؛ ٢ كو ١:٤؛ غل ١٥:١). اختير ليعلن إنجيل الله (رو ١:١)، وينشر إعلان النعمة الإلهيّة التي تصالح الإنسان مع الله، والإنسان مع ذاته ومع الآخرين، بالمسيح يسوع. كان نجاح رسالته مرتكزًا على التزامه الشخصي بإعلان الإنجيل، في إعطائه ذاته كليًّا للمسيح. لم يخف المخاطر مرّة، ولا تراجع أمام الصعوبات والاضطهادات، فأعلن عاليًا "لا موت ولا حياة، لا رئاسات ولا سلاطين، لا حاضر ولا مستقبل، لا قدرات، لا علو ولا عمق ولا أي خليقة أخرى يمكنها أن تفصلنا عن محبّة الله لنا بالمسيح ربنا" (رو ٣٨:٨-٣٩).

وكأنه آتٍ من الظل. لا يذكر عن عائلته شيئًا، إنه من الذي لم يشأ أن يستعيد شيئًا من إنسانه القديم، بعد أن صار "خلقًا جديدًا" بلقائه المسيح (غل ١٥:٦). وهو الذي شاء أن ينظر إلى الأمام دون أن يلتفت بعد الآن إلى الوراء، فترك ماضيه في الظلّ. مرة واحدة أراد شاول بولس أن يعطي بعض المعلومات عن ذاته، لكنّها لا تروي عطش من يريد التعرّف إلى تاريخ هذا الرسول "فيل ٤:٣ب – ٦". تؤلّف هذه المعطيات، بالحقيقة، مجرّد "شهادة حسن سلوك" ليهودي ملتزم: مختون في اليوم الثامن بحسب أصول الشريعة اليهوديّة؛ من سلالة رفيعة المستوى بما أنه من قبيلة بنيامين، "عبراني إبن عبراني"، وليس من الطارئين على الشعب

المختار. هو ليس مجرّد "يهودي" بل "عبراني"، على علاقة وثيقة بأورشليم وبثقافتها ولغتها العبريّة، مع أنه من الشتات.

كنا نتمنّى أن نجد في كتاباته وصفًا لما كانت عليه صورته، لكنّه يلتزم الصمت المطبّق على هذا الصعيد. نقرأ في مقطع من كتاب "أعمال بولس" المنحول (المكتوب في آسيا الصغرى، والذي يعود إلى سنة ١٥٠) عن بعض ملامحه: "رجل قصير القامة، لا شعر في رأسه، ساقان مقوّسان، شديد البأس، حاجبان مضمومان، أنف معقوف بعض الشيء، مملوء لطافة. بدا تارة بشكل إنسان وطورًا كان وجهه وجه ملاك".

من طرسوس؟ هذا ما لا يقوله بولس في رسائله. يحمل الهويّة الرومانيّة؟ لا يذكر هذا الأمر أبدًا، بل على العكس يقول بأنه "جُلِد" (٢ كو ١١:٢٥)، وهو أمر من غير المعقول أن يحدث لمواطن روماني.

متزوّج؟ لا ندري. لكنّه لم يكن متزوّجًا أثناء رسالته، وهو ما يدلّ عليه اعتراضه على انتقادات الكورنثيين: "أما لنا حقٌ أن نستعجب امرأة مؤمنة كسائر الرسل وإخوة الرب وصخر؟". لكن هذا لا يؤكّد أنه لم يتزوّج أبدًا، فذلك أمر لم يكن مألوفًا عند يهودي ملتزم.

متعلّم؟ هذا ما يؤكّده لوقا في كتاب أعمال الرسل، ويُبرزه أسلوب رسائل القديس. فهذه الرسائل تعكس صورة رسول يمتلك فن الكتابة، والخطابة، والفلسفة، والأدب اليوناني، كما يمتلك معرفة الكتب المقدّسة ومنهجيّة الرابينيين اليهود، والفريسيين منهم خاصّة. من الواضح أنه تمرّس طويلاً في منهجيّة هؤلاء، التي كانت تقوم على البرهان والمجادلة المتعلّقة بموضوع معيّن من مواضيع الشريعة.

مضطهد الكنيسة؟ هذا ما يذكره بولس جهرًا وبوضوح في رسالته إلى أهل غلاطية (غل ١:١٣-١٤). مضطهِد جامِح لا يُغفر عمله. كان الأفضل... في الاضطهاد! بحسب قوله. أي اضطهاد هذا؟ ذلك ما لا يصرّح عنه.

يعطي لوقا في كتاب أعمال الرسل صورة عن شاول – بولس الهمجي الدموي (أع ٨:٣)، وهو ما لا يمكن أن تكون السلطة الرومانيّة قد سمحت به من جهة؛ وما لا يمكن لفرّيسي متعلّق بطقوس الطهارة أن يتورّط به من جهة ثانية. ثمّ أن الكنيسة لم تكن في ذلك الوقت قد انفصلت عن اليهوديّة، حتى أنها لم تكن قد وَعَت الجديد الذي تحياه. فالرسل كانوا لا يزالون يرتادون الهيكل كيهود أتقياء، ويدافعون عن الخط اليهودي: "ما جئت لأنقض الشريعة بل لأكمّل" (مت ٥:١٧-١٨). فلربما كان اليهود-المسيحيون يشكّلون بالأحرى تيارًا يهوديًا مميّزًا، على شاكلة التيارات التي كانت عديدة في ذلك الوقت من معمدانيين، وقمرانيين... ولم يكن وجود جماعات خاصة في اليهوديّة يشكّل معضلة، طالما أنها لا تهدّد الإيمان. فإن كان اضطهاد ما قد وُجد فهو لم يَطل، على الأرجح، سوى جناح صغير من المسيحيّة يتمثّل بفريق يقوده اسطفانوس الذي

تخطّى حدود المقبول عندما مسّ الهيكل والشريعة (أع ٦:١٣-١٤). في كل الأحوال، كان هذا الأخير هللينيًا، لا يتكلّم الآراميّة ولا العبريّة.

وما كان دور بولس في هذا الاضطهاد؟ من الصعب أن يكون المسؤول عنه في أورشليم. ربما كان من الوشاة، أو من شهود الاستجوابات... في كل الأحوال، لم تدم حياته كمضطهِد طويلاً. فطريق دمشق لم تكن بعيدة.

خبرات تصوّف؟ حوالي السنة ٣٤، بحسب التاريخ الذي يمكننا أن نحدّده بحسب الرسالة إلى الغلاطيين، اهتدى بولس فجأة إلى المسيحيّة، على إثر خبرة تصوّفيّة غير عاديّة.

إنه الحدث المفصلي في حياته، وفي مستقبل المسيحيّة. لولا حدث دمشق، لما كان لبولس صفة الرسول. طالما استعاد بولس هذا الحدث، وطالما استعان به ليبرّر سلطته، وليتساوى مع "الآخرين": بطرس ويعقوب ويوحنا، الذين عرفوا المسيح في حياته على الأرض.

كل الصور التقليديّة لهذا الحدث نعرفها من كتاب أعمال الرسل (أع ٩؛ ٢٢؛ ٢٦). أراد لوقا من كتابته الخبر ثلاث مرات أن يصف خبرة توبة شخص كان قد قدَّمه كخاطئ كبير سينال الخلاص والعماد، بواسطة التلاميذ. إنها ليست دعوة بل توبة.

أمّا بولس فقد فهم هذه الخبرة بشكل آخر: إن لقاءه بالرب هو دعوة قبل كل شيء، إنها دعوة من الله الذي جعله "رسول يسوع المسيح". منذ ذلك الحين صار شاول "رسول يسوع المسيح، لأن الرب ظهر له، وسيكون دومًا، وطيلة حياته "رسول المسيح يسوع" لأن يسوع المسيح صار جوهر حياته، وجوهر رسالته.

يترجم بولس هذه الدعوة في رسائله تحت شكلين: إنها أولاً حدث مؤسّس يعطي شرعيّة لرسالته، بمعنى أنها جعلته وسيطًا بين الله والبشر، وهي ثانيًا مَثَلٌ عن رحمة الله.

لم يفهم بولس ما حدث له على طريق دمشق إلا من خلال "رحمة الله". هذه الرحمة وحدها هي ما أعطت لرسالة بولس شرعيّتها. هذا ما يؤكّده في رسالته إلى أهل غلاطية، مستعينًا بأسلوب أشعيا النبي: "حسن لدى... من بطن أمي..." (غل ١:١٥-١٦)

بكلام آخر فهم بولس أن "كل شيء نعمة". خبرة دمشق هي ثمرة إرادة الله وحدها، إنها عطيّة مجانيّة من الله. بذلك صار بولس مثالاً حيًا لرحمة الله، الذي، بنعمته، جعل منه رسولاً لإعلان بشرى جوهريّة مفادها أن "يسوع هو ابن الله".

خبرة دمشق بحسب بولس، هي خبرة تجلٍ إلهي حميم. لكن الإطار يتغيّر في الرسالة الأولى إلى الكورنثيين، فتتحوّل لهجة الرسول الى الحدّية أمام انتقادات تضع مرتبة بولس بين الرسل موضع الشك (١ كو ١٥:٩-١٠)

هنا يتحوّل الماضي من موضوع شهادة عن الرحمة الإلهية، إلى برهان يؤكّد رسوليته بالرغم من ضعفه الشخصي. بتأكيده مآثره في الاضطهاد، ومكانته الوضيعة، أراد بولس أن يبرز قيمة رسالته وكأنه يقول "لا يجب النظر إلى بولس، بل إلى القدرة الإلهيّة" في الإناء البشري، فليس لـ "الإناء الخزفي" أن يطلب كرامة، لأن محتواه الإلهي وحده يجب أن يظهر. هذا ما أعلنه بولس فعليًا "وكأن الله يعظ على ألسنتنا" (٢ كو ٥:٢٠). هنا يأخذ التجلّي الداخلي الحميم بعدًا آخر هو تنصيب الرسول ناطقًا بالكلمة الإلهيّة.

ما الذي حدث فعلاً على طريق دمشق إذًا؟ لا قيمة للجواب من وجهة نظر بولس. فلن نطالها إلا من خلال ما يقوله هو: كانت له نعمة خبرة اللقاء بالرب، اقتنع من خلالها بأن يسوع الذي يضطهده: حي ممجّد؛ هو ابن الله؛ وهو الذي أقامه رسولاً.

يسوع حيّ، وبالتالي فإن العبور إلى الإيمان يتمّ بالقيامة. من هنا أخذت القيامة المكان المحوري في الإيمان المسيحي. والقيامة ليست مجرّد بشرى عن يسوع، بل هي بشرى تخصّ البشريّة بكاملها، لأنه بقيامة المسيح بدأت مسيرة القيامة العامّة: بالمسيح يحيا الجميع. ودون هذا الإيمان، المسيحيّة هباء لا معنى لها.

المسيح هو ابن الله. في ذلك تأكيد يكمّل ما سبق، ويشكّل الجديد الذي أتى به بولس. فالمسيح ليس مجرّد مخلّص محارب، أو مجرّد ابن إنسان على صورة ما قدّم دانيال النبي، بل هو ابن الله منذ الأزل وإلى الأبد. هذا الكشف جعل من بولس رسولاً. فعندما رأى بولس ابن الله صار من عداد الرسل الذين أقامهم يسوع نفسه. ليس حدث طريق دمشق نقطة انطلاق جديدة. إنه بالأحرى تغيير في الأهداف البولسيّة، وتصويب لقناعتين: في شخص يسوع، المسيح المصلوب وجدت اليهوديّة، التي اعتنقها طيلة حياته، تمامها. هذا من جهة، ومن جهة ثانية صار تلاميذ يسوع، الذين كان يضطهدهم، إخوته.

هكذا فهم بولس أن عليه تغيير حياته. لم يعد حائكًا يفكّر كرسول، بل رسول يمكنه أن يكون حائكًا ليكفي حاجاته عند الحاجة. ولم يعد عليه بالتالي، سوى بدء المسيرة واثقًا من أنه لا يأخذ الأوامر الرسوليّة إلا من الله بالذات.

خطواته الرسوليّة الأولى

فيما يصمت كتاب الرسل عن بداية حياة بولس الرسوليّة طيلة إثني عشرة سنة، يلمّح بولس إلى فترة الظلّ هذه في رسالته إلى غلاطية: *"لَمَّا حَسُنَ لدى اللهِ الَّذي أَفرَزَني، مُذ كُنتُ في بَطْنِ أُمّي، ودَعاني بنِعمَتِهِ، أَن*

يَكشِفَ لِيَ ابنَه لأُبَشِّرَ بِهِ بَينَ الوَثنِيِّين، لم أَستَشِرِ اللَّحْمَ والدَّم ولا صَعِدتُ إِلى أُورَشليم قاصِدًا مَن هم رُسُلٌ قَبْلي، بل ذَهَبتُ مِن ساعَتي إِلى دِيارِ العَرَب، ثُمَّ عُدتُ إِلى دِمَشْق" (غل ١:١٥-١٧)

بعد نعمة الكشف التي وهبه إياها الرب، يؤكّد بولس بأنّه لم يستشر "اللحم والدم"، ولم ينزل عند رغبات الجسد. فهل يعني بذلك أنه لم يخف من المغامرة بل انطلق في الرسالة؟ أم يؤكّد عدم عودته بعد إلى إنسان مهما كان عظيمًا، فلم يستشر المسيحيين الآخرين؟ المؤكّد أنه لم يعد إلى معقل المسيحيّة في أورشليم، بل توجّه إلى "بلاد العرب"، واثقًا من أن دعوته هي من الله مباشرة.

كانت بلاد العرب في ذلك الوقت هي مملكة الأنباط (عربيّة بترا) في الأردن الحاليّة. لكن هذه البلاد كانت معادية لليهود بعد أن طلّق هيرودس أغريبا إبنة أريتاس الرابع ملك الأنباط، ليتزوّج هيروديّا امرأة أخيه فيلبّس. فمع أن أريتاس لم يعلن الحرب خوفًا من تدخّل الرومان لجعل مملكته ولاية رومانيّة، كان من غير الممكن ليهودي كشاول بولس أن يمكث عندهم طويلاً. بداية بولس كانت بلا شكّ في دمشق. هناك حصل على معلوماته المسيحيّة الأولى.

وعلى تنشئته الرسوليّة الأولى. لكن الأمر لم يطل قبل أن يستلم أريتاس ملك الأنباط مسؤوليّة الحكم في دمشق، حيث كانت الجالية اليهوديّة كبيرة مزدهرة. فهل واجه شاول أعداءً كان قد التقاهم في بلاد العرب؟ لا ندري. لكن الرسالة الثانية إلى كورنتس تؤكّد أنّه هرب سريعًا من دمشق: "*كانَ عامِلُ المَلِكِ الحارِثِ في دِمَشْق يَأمُرُ بِحِرسةِ المَدِينةِ لِلقَبْضِ عَلَيَّ، ولكِنِّي دُلِّيتُ في زِنْبيلٍ مِن كَوَّةٍ على السُّور فَنَجَوتُ مِن يَدَيه*" (٢ كو ١١:٣٢-٣٣).

وضعتة صعوبات رسالته في حالات لا يُحسد عليها، لكنّه لم يحاول يومًا إخفاءها.

التنشئة في أورشليم قرب بطرس

في متابعتنا لقراءة الرسالة إلى غلاطية المصدر الرئيسي للمعلومات حول هذه الحقبة الخفيّة من حياة بولس، نقرأ

"*وبَعدَ ثَلاثِ سَنَوات صَعِدتُ إِلى أُورَشَليمَ لِلتَّعَرُّفِ إِلى صَخْر، فأَقَمتُ عِندَه خَمْسةَ عَشَرَ يَومًا، ولم أَرَ غَيرَه مِنَ الرُّسُلِ سِوى يَعقوبَ أَخي الرَّبّ. وما أَكتُبُه إِلَيكم فاللهُ شاهِدٌ على أَنِّي لا أَكذِبُ فيه. ثُمَّ أَتَيتُ بِلادَ سورِيَةَ وقيليقِيَة*" (غل ١:١٨-٢١).

ولكن، بعد ثلاث سنوات على ماذا؟ هل على دعوته أم على هربه من دمشق؟ من المستحيل التحديد. الشيء الوحيد الذي يمكن تأكيده هو أن بولس "صعد" إلى أورشليم حوالي السنوات ٣٧-٤٠ ليرى بطرس. أعطت هذه الزيارة بولس ضمانات ثلاث: أولاً ضمانة بطرس، فهو الأول بين الرسل، والشاهد على حياة

يسوع وعلى قيامته، لقاؤه إذًا هو ضمانة لإكمال تنشئة المهتدي حديثًا. بواسطة بطرس، تعرّف بولس على تفاصيل من حياة الرب، حفظ أقواله، وتعمّق على نوره في المواضيع اللاهوتيّة المطروحة في جماعة أورشليم. وفي الوقت عينه، ساهم هذا اللقاء في أن يتعلّم من لم يكن مقبولاً كرسول "مهنة الرسول".

وأعطته هذه الزيارة ثانيًا ضمانة يعقوب "أخ الرب". فإن كان بطرس يتمتّع بتأثير معيّن على جماعة اورشليم، فهو لم يكن رئيسها. كان يعقوب رئيس العبرانيين الأول، وكانت سلطته المعنويّة الأكيدة. لكن يعقوب كان يمثّل في الكنيسة الرسوليّة تيارًا ملتزمًا باليهوديّة، ينادي بضرورة الحفاظ على الشريعة. فكان لقاء بولس به ضمانة إضافيّة له.

وأعطته ثالثًا، ضمانة زيارة مهد المسيحيّة وكأنها أوراق اعتماده الرسميّة قبل رحلته إلى سوريّا وكيليكية.

أسّس بولس أثناء رحلاته العديد من الجماعات، نعرف ذلك من كتاب أعمال الرسل الذي يشدد على صورة بولس الواعظ الشغوف والخطّيب الفوّة ذو الأعمال الفاعلة والمدهشة. أما بولس فلا يتكلم في رسائله عن أعماله الخارقة إلا بخفر (٢ كو ١٢:١٢؛ رو ١٥:١٨)، فلا يصفها ولا يعتبرها أساسيّة في مسيرة الإيمان. لكنه بالمقابل، أضاف إلى مسؤوليّاته التأسيسيّة، رسالة كتابة الرسائل، فحوّل عادة المراسلات بين الأهل والأصحاب، إلى كتابة رسائل تهتمّ بأمور الجماعات عن بعد. معه صارت الرسائل وسيلة لإكمال عمل التبشير.

صعوبة العمل على تحضير الصحائف للكتابة، لم تكن عائقًا، فقد كان بولس من الذين يعرفون كيف يعملون ضمن فريق إن في البشارة أو في الكتابة (رو ١٦:٢٢).

كان كلّ شيء يسير على ما يرام رغم الصعوبات، لكن برزت مشكلة كبيرة ومزدوجة: **أولاً** عدم الصبر على الأزمات، كما نقرأ في الرسالة الأولى إلى تسالونيكي. نجد في الحقيقة بين سطور هذه الرحيث نستشفّ آثار اضطهاد لم يحفظه التاريخ: "*بعَثْنا بِطيموتاوُسَ أَخينا ومُعاوِنِ اللهِ في إِعْلانِ بِشارةِ المسيح لِيُثَبِّتكم ويُؤَيِّدكم في إِيمانِكم لِئَلاَّ يَتزَعزَعَ أَحَدٌ في هذِه الشَّدائِد*" (١ تس ٣:٢-٨)، **وثانيًا** عدم الصبر على احتمال الوقت بانتظار الخلاص. تفاجأ بولس بقناعات تؤكّد عودة المسيح قريبًا جدًا، فكان أن كتب يجيبهم ويصحّح المسار (١ تس ٤:١٥-١٧).

عرف بولس أن الكرازة لم تكن كافية، وأن الناس بحاجة إلى مواكبة، وإلى من يوضح لهم السبيل المسيحي الحق فكتب: "*أمّا أَنتُم، أَيُّها الإِخوَة، فلَستُم في الظُّلُماتِ حتَّى يُفاجِئَكم ذلِك اليَومُ مُفاجَأَةَ السَّارِق، لأَنَّكم جَميعًا أَبناءُ النُّورِ وأَبناءُ النَّهار. لَسْنا نَحنُ مِنَ اللَّيلِ ولا مِنَ الظُّلُمات. فلا نَنامَنَّ كما يَفعَلُ سائِرُ النَّاس، بل علَينا أَن نَسهَرَ ونَحنُ صاحون. فالَّذينَ يَنامونَ إِنَّما هم في اللَّيلِ يَنامون، والَّذينَ يَسكَرونَ إِنَّما هم في اللَّيلِ*

يَسكَرونَ. أَمَّا نَحنُ أَبناءَ النَّهار فلْنَكُنْ صاحين، لابِسينَ دِرْعَ الإِيمانِ والمحَبَّة وخُوذَةَ رَجاءِ الخَلاص" (١ تس ٥:٤-٨)

بولس رسول الأمم

كان اليهود ينتظرون اليوم الأخير لقبول دخول الوثنيين في شعب الله، أما بولس فقد قرّر إيصال البشرى الى العالم اليوناني – الروماني. ربما كان توقّفه في غلاطية بسبب المرض، واستقبال أهلها الحار له، في حين كان العالم المتمدّن ينعتهم بالبرابرة، ثم اهتداؤهم إلى البشارى السارّة، قد أدّت ببولس اليهودي إلى طرح أسئلة عديدة حول العديد من قناعاته القديمة: لم يكن الغلاطيّون يعرفون الشريعة لكنّهم اعتنقوا الإيمان، فهل ذلك يعني أن الشريعة غير ضروريّة؟ كيف الوصول إلى الله إذًا دون مساعدة الشريعة وأعمالها؟

وما العمل بالوثنيين؟ فالمسيح هو تمام انتظارات اليهود، لكن الأمم في أنطاكيا وتسالونيكي وكورنتس... آمنوا به، فكيف التعامل مع عاداتهم وتقاليدهم...؟

كان لا بدّ من أخذ قرار جامع. فكان مجمع أورشليم كما ينقل بولس أخباره الأساسيّة في رسالته إلى غلاطية ١:٢-١٠. يبدو أن اللقاء كان عاصفًا في البداية: "*ثُمَّ إِنِّي بَعدَ أَربَعَ عَشْرَةَ سَنة صَعِدتُ ثانِيةً إِلى أُورَشَليمَ مع بَرنابا واستَصحَبتُ طيطُسَ أَيضًا... وإِلاَّ لَكانَ ذَلك بِسَبَبِ الإِخوَةِ الكَذَّابينَ المتَطَفِّلينَ الَّذينَ دَسُّوا أَنفُسَهم بَيننا لِيتجَسَّسوا حُرِّيَّتَنا الَّتي نَحنُ علَيها في المسيحِ يسوع فَيستَعبِدونا، ولَم نُذعِنْ لَهم خاضِعينَ ولَو حِيناً لِتَبْقى لَكم حَقيقةُ البِشارة*" (غل ٢:١، ٤-٥).

فقد هاجم هؤلاء الإخوة الكذابون، الملتزمون بقناعاتهم اليهوديّة القديمة، ما ينادي به بولس من "حريّة بيسوع المسيح" و"حقيقة الإنجيل". لكن نتيجة اللقاء جاءت متماشية مع طروحات بولس، فشكّل "اتّفاق أورشليم" توافق على استراتيجيّة تنبشيريّة، تقضي باقتسام حقل التبشير بين بطرس وبولس، وبطلب القيام بحملة جمع للتبرّعات (غل ٢: ٥-١٠). أقرّ المسؤولون إذًا بأولويّة الإيمان على الشريعة. لكن الأمور لم تكن بهذه السهولة. هذا ما بم يلبث بولس أن لمسه: "*لَمَّا قَدِمَ صَخْرٌ إِلى أَنْطاكِية، قاوَمتُه وَجْهًا لِوَجْهٍ لأَنَّه كانَ يَستَوجِبُ اللَّوم: ذلِكَ أَنَّه، قَبْلَ أَن يَقدَمَ قَومٌ مِن عِندِ يَعْقوب، كان يُؤاكِلُ الوَثنِيِّين. فلَمَّا قَدِموا أَخَذَ يتَوارى ويَتَنحَّى خوفًا مِن أَهْلِ الختان، فجاراه سائِرُ اليَهودِ في رِيائِه، حتَّى إِنَّ بَرنابا انقادَ هو أَيضًا إِلى رِيائِهِم*" (غل ٢:١١-١٣).

في الحقيقية، لم يستسلم المتهوّدون بسهولة بعد نتائج المجمع، فأرسلوا موفودين يدافعون عن وجهة نظرهم. تأثّر بهم العديدون ومنهم بطرس، الذي وجد نفسه مضطرًّا إلى لعودة لممارساته القديمة. وجد بولس نفسه مستهدفًا فترك أنطاكيا، وشكّل معه فريقًا رسوليًا مؤلّفًا من: أبلّس الآتي من الاسكندريّة، والذي عمل بجهد في كورنتس (١كو١)؛ برسكيلا وأكيلا اللذين أسّسا جماعات بيتيّة في كورنتس (١ كو ١٩:١٦) حتى روما (رو ٥:١٦)؛ إبافراس الكولوسي (كو ١٢:٤)؛ إبافروديت الفيليبي (فيل ٢٥:٢)؛ أونيسميس عبد فيلمون الكولوسي الذي اهتدى إلى المسيحيّة (فلم)؛ وتيموتاوس الذي رافق بولس طيلة حياته، وقد عهد إليه بالمهمّات الدقيقة (معالجة مشاكل الكنائس المقدونيّة (١ تس ٦:٣) قبل أن يعود للانضمام إلى بولس في كورنتس (٢ كو ١٩:١)، ليكون معاونه الأول (رو ٢١:١٦)، ويقود مهمّة صعبة في كورنتس باءت بالفشل (١ كو ١٧:٤؛ ٩:١٦-١١). تبع بولس إلى مقدونية (رو ٢١:١٦))؛ وتيطس الانطاكي الذي طالما توكّل بمهمّات دبلوماسيّة، فرافق بولس إلى مجمع أورشليم (غل ١:٢)، واهتمّ بمعالجة الأزمة الكورنثيّة بعد فشل تيموتاوس (٢ كو ٦:٧-١٦)، وجمع التبرّعات (٢ كو ١٦:٨-٢٤).

بالرغم من نجاحاته الأكيدة، ومن استناده إلى جماعات مسيحيّة ثابتة، بقي بولس في موقف الضعيف أمام السلطة الكنسيّة، وأمام المتهوّدين الذين ما انفكّوا يهاجمونه. طبعت هذه المواجهات كل فترة مكوّثه في أفسس كما يظهر من رسالتيه إلى غلاطية وإلى فيليبي.

بولس بحسب الرسالة الى غلاطية

تأسّست كنيسة غلاطية على إثر اضطراره إلى التوقّف عندهم لمرض ألمّ به "*كُنتُ لَكم مِحَنَةً بِجِسْمي، فم تَزدَروني ولَم تَشمَئِزُّوا مِنّي، بل قَبِلتُموني قَبولَكم لِمَلاكِ الله، قَبولَكم لِلمَسيحِ يسوع. فأَينَ ذاكُمُ الاِغتِباط؟ إِنِّي أَشهَدُ أَنَّكم، لو أَمكَنَ الأَمْر، لَكُنتُم تَقتَلِعونَ عُيونَكم وتُعطوني إِيَّاها*" (غل ١٤:٤-١٥)، فكانت كنيسة واعدة انطلقت سريعًا وازدهرت. لكن الأمر لم يطل قبل وصول المتهوّدين من انطاكيا. بدأ هؤلاء بالتصويب على بشارة بولس لـ "تصحيحها" بحسب الشريعة. استندوا في مواجهتهم، من جهة، على أن بولس لم يعرف يسوع التاريخي، فهو بالتالي ليس رسولاً حقيقيًا؛ ومن جهة ثانية على أنه لا يدعو إلى الثقة كونه اضطهد الكنيسة في السابق؛ وأخيرًا على كون كرازته بعدم ضرورة الشريعة والختان ليست موضوع إجماع في الكنيسة.

على هذه الانتقادات الثلاثة، أتى جواب بولس مثلّثًا:

أنا رسول (غل ١-٢) وقد أقامني الله نفسه رسولاً ليسوع المسيح (غل ١١:١-١٢)؛ الشريعة غير ضروريّة (غل ١:٣-٢، ٥)، وهذا ليس جديدًا في كل الأحوال، فابراهيم أيضًا آمن ولم تكن الشريعة قد وُجدت بعد (غل ٦:٣-٧). ولكن كيف تحوّلت شريعة الله إلى عائق؟ فذلك لأن الناس فهموا أنها غاية في حين أنها

ليست سوى مرحلة ضروريّة في مسيرة نضوج البشريّة، لعبت دور المربّي. واليوم انتهى دورها لأن المسيح أزال الفروقات بين يهودي ووثني... وصار البشر أولادًا لله (غل ٤:٧-٩). وصارت حياة الإنسان ارتباطًا مباشرًا بيسوع (غل ٢:٢٠). بعد الآن المهم الوحيد هو الإيمان؛ ولمن يريد أن يعرف جوهر المسيحية بالتحديد، يعرضها بولس في غلاطية ٥-٦.

لكن هذا الشرس في الدفاع عن رتبته كرسول، والمستميت في البرهان عن صوابيّة خطّه اللاهوتي، هو أيضًا الحنون الرقيق المهتمّ بأمور جماعته كأب قلق على مستقبل من ولدهم للحياة: "[١٢]إِنَّ أُولئِكَ الَّذينَ يُريدون تَبْييضَ وُجوهِهم في الأُمورِ البَشَرِيَّة همُ الَّذينَ يُلزِمونَكمُ الخِتان، وما ذاكَ إِلاَّ لِيَأمَنوا الاِضْطهادَ في سَبيلِ صَليبِ المسيح... أَمَّا أَنا فمَعاذَ اللهِ أَن أَفتَخِرَ إِلاَّ بِصَليبِ رَبِّنا يسوعَ المسيح! وفيه أَصبَحَ العالَمُ مَصْلوبًا عِنْدي، وأَصبَحتُ أَنا مَصْلوبًا عِندَ العالَم. فما الخِتانُ بِشَيءٍ ولا القَلَفُ بِشَيء، بلِ الشَّيءُ هو الخَلْقُ الجَديد... فلا يُنغِّصَنَّ أَحَدٌ عَيْشي بَعدَ اليَوم، فإِنِّي أَحمِلُ في جَسَدي سِماتِ يسوع" (غل ٦:١٢-١٧).

بولس الرسالة الى فيليبي

واجه بولس في فيليبي، الصعاب الكبيرة (٢كو ١١:٢٣-٢٥). لكنّه احتفظ طيلة حياته بعاطفة خاصة لهذه المدينة التي لم تكفّ يومًا عن مساعدته (فيل ١:٨)، وعن معاونته (فيل ١:٥).

في رسالته إلى أهل هذه المدينة، وقد كتبها على الأرجح في أفسس، حيث يبدو أنه سُجن لفترة، يعلن بولس قلقه من صدور الحكم عليه بالموت، لكن لحسن حظّه ساهم سجنه في نشر البشارة (فيل ١:١٣-١٤). في كل الأحوال الموت ربح، لأنه وسيلة للقاء بيسوع الرب، لكن حاجة الجماعة تجعله في تنازع بين رغبته بالموت وضرورة الحياة (فيل ١:٢١-٢٧). لا يجد بولس ما يلوم عليه أهل فيليبي سوى وجود الانقسامات (فيل ٢:١-٢)، والكبرياء. على ذلك يأتي جوابه نشيدًا رائعًا للاهوت الصليب والمصلوب الممجّد (فيل ٢:٦-١١).

لكنه في هذه الرسالة أيضًا ينبّه إلى خطر المتهوّدين"*إِحذَروا الكِلاب، اِحذَروا العَمَلَةَ الأَشرار، اِحذَروا ذَوي الجَبّ، فإِنَّما نَحنُ ذَوو الخِتانِ الَّذينَ يُؤَدُّونَ العِبادَةَ بِرُوحِ الله ويَفتَخِرونَ بِالمسيحِ يسوع، ولا يَعتَمِدونَ على الأُمورِ البَشَرِيَّة*" (فيل ٣:٢-٣)، قبل أن يشكر بعاطفة جيّاشة "" (فيل ٤:١١-٢٠).

طيلة حياته عمل بولس بيديه ليكفي حاجاته، لكنّه قبل مساعدة هذه الكنيسة برهانًا على عاطفته تجاهها (فيل ٤:١٧-١٨).

في المرحلة الأخيرة من سجنة المفترض في أفسس برزت مشكلة أونيسمس العبد الهارب من سيده فيلمون، يعلن له فيها أن عبده على هذه الأرض هو أخ حبيب بالمسيح للأبدية (فلم ١٥-١٦). ثم أن ليولس مكانة خاصة عنده، بها يتجرّأ أن يطلب (فلم ١٧-١٩).

بولس وأزمات كورنتس

كان يمكن لبولس أن يظن بأنه ارتاح من المشاكل، لكن المفاجآت أتته من كورنتس لؤلؤة الكنائس التي أسسها أثناء رحلته الرسولية الثانية. كانت مهمته فيها سهلة وناجحة جدًا (أع ١٨: ١-١٧). تألّف الجماعة المسيحية فيها من أغنياء على مثال سوستينس ("رئيس المجمع" بحسب كتاب الأعمال)، وإراستس خازن روما (رو ١٦: ٢٣)؛ ومن عبيد على مثال ترسيس (رو ١٦: ٢١) وفورتناتس وإخائيُس، بالإجمال لم يكن فيهم " فِي نَظَرِ البَشَرِ كَثيرٌ مِنَ الحُكَماء، ولا كَثيرٌ مِنَ المقتَدِرين، ولا كَثيرٌ مِن ذَوي الحَسَبِ والنَّسَب" (١كو ١: ٢٦).

الأزمة الأولى (١ كورنتس)

عندما ترك بولس كورنتس سنة ٥١، للمشاركة في مجمع اورشليم، والاستقرار في أفسس، ترك وراءه جماعة فتية لكنها مزدهرة، بقي على علاقة دائمة معها. يبدو، بحسب رسائله، أنه أوكل أبلّس لينوب عنه فيها، وكان هذا الأخير متكلّمًا موهوبًا، من الاسكندرية، ينتمي الى التيار المعمداني الأفسسي، فنجح بامتياز. كان أبلّس متعلّمًا أكثر من بولس، وكان فنّ الخطابة عنده مميّزًا فجذب محبّي الفلسفة والأدب، وكان أن خلق حوله، دون إرادته، تيّارًا هدّد بانشقاق الجماعة الى "من هم لأبلّس"، وقد قابلهم، كردّة فعل، "من هم لبولس" و"من هم لبطرس" و"من هم للمسيح"... (١كو ٢: ١٤-٣: ١). إلى جانب هذا الجرح المؤلم، أُضيف انقسام اجتماعي فرّق المؤمنين، أثناء صلواتهم والطقوس، بحسب طبقاتهم (١ كو ١: ٢٠-٢٢). ولكي يكتمل مشهد المشاكل، فسّر الكورنثيون البشرى الانجيلية بحسب قوانينهم الخاصة، ففهموا الحرية التي كرز بها بولس كتفلّت وحثّ على الفردانية؛ وفهموا الدعوة الى عالم جديد، كدعوة الى تمجيد الظواهر الصوفية والمواهبية...

في رسالته، يوبّخهم بولس بشكل خاص على ثلاثة أمور يجب أن يخجلوا منها: الزنى (٥: ٣-٥٩) والتقاضي لدى المحاكم الوثنية (٦: ١-١١)، والمناداة بأن "كل شيء يحلّ لنا" (٦: ١٢)، قبل أن يجيب على بعض

أسئلتهم حول الزواج (٧: ٩)، والحرية (١٠: ٢٣)، والانقسامات الاجتماعية (١١: ١٨)، واضعًا المحبة جوابًا يكلّل كل شيء (١٣: ١-٨).

أزمات أخرى (٢ كورنتس)

لم تساهم الرسالة القاسية في تهدئة الخواطر، بل أدّت، على العكس، الى إصغاء الناس الى متهوّد، لا نعرف اسمه، وَفَد الى الجماعة وأثارها ضد تعاليم المؤسِّس. أرسل هذا الأخير تيموتاوس، ففشل (١ كو ٤: ١٤-٢١؛ ٧: ١٢)، ثم أرسل تيطس مع رسالة توصية فكان أكثر دبلوماسية من تيموتاوس ونجح في استعاتهم الى بولس (غل ٢: ١-٣).

في هذه الرسالة، حاول بولس إظهار المسافة الشاسعة التي تفصل الكورنثيين "الروحيين" عن "المتهوّدين"، في محاولة لكسر العهد بين التيارين (٢ كو ٣: ١٣-١٤)، وإظهار النزاع كمواجهة ضدّ شخصه بالذات، قبل أن يقوم بدفاع عن الذات مبنيّ على لاهوت الصليب. فهو كشخص ليس سوى مجرّد إناء ترابي خزفي دون كرامة، لكن تعاليمه وتوبيخاته وأعماله، هي من وحي المسيح، وكأن المسيح يحيا فيه هو الوسيط المسكين (٤: ٧- ١٣)، جاعلاً منه "سفير المسيح" (٥: ٢٠). "آمنت ولذلك تكلّمت". إنها الجملة التي يمكن أن تلخّص كل فكر القديس بولس. فالايمان برأيه، هو السبب المباشر لكل كلمة، وهو الذي يدفع الى التبشير والصلاة والحمد. وفي كل الأحوال تبقى مكانة الكورنثيين كبيرة في قلبه (٦: ١٢-١٣).

بالرغم من هذه الرسالة، لم تهدأ الخواطر، فالمتهوّدون ما زالوا يجهدون... والكورنيثيون يسمعون، فكانت رسالة أخرى (الثانية الى الكورنثيين، والرابعة ربما)، عبّر فيها بولس، لا بدبلوماسية ولا بكلمات مدروسة موزونة، بل بحزن و"إحباط"، أمام المستعدّين للايمان بمسيح آخر، وإنجيل آخر، وروح آخر. إنهم أبناء حواء الذين انجرّوا مع آخِر من كلّمهم (١١: ٢-٤).

أسّس بولس الكنائس، وتعب وأحبّ، فتركوه وتبعوا آخرين. لكنه قادر على الدفاع عن نفسه (٢ كو ١٠-١٢)، يبرز سلطته بالرغم من وداعته وطيبة قلبه ومظهره المتواضع (٢ كور ١٠: ١٠-١١). وإن كان الكورنثيون ممن يمجّدون الايحاءات والخبرات الصوفية، فهو أيضًا نال منها ما يجعله قادرًا على الافتخار، لكنه ليس ممن يمجّدون ذواتهم (٢ كو ١١: ٢٢-٢: ١٠)، وقد جعل من الصليب افتخاره الأوحد. على هذه الخلفية، فهم بولس صعوباته الجسدية والنفسية، تلك "الشوكة في الجسد" (١٢: ٧).

بولس الرسالة الى الرومانيين

بعد مكدونية، عاد بولس الى كورنتس حيث أمضى شتاء ٥٥-٥٦. لكن الوضع لم يكن مريحًا. فهل يستسلم؟ بالطبع لا! لقد اعتاد دومًا الهرب الى الأمام، فوضع استراتيجية لآفاق بشارة جديدة في روما واسبانيا.

انطلاقًا من روما، كمرحلة أولى، كان بولس قادرًا على الإشعاع حول البحر المتوسط (رو ١٥: ٢٣-٢٤). لكن عاصمة الامبراطورية، بجماعاتها المتعددة والمختلفة، لم تكن مدينة سهلة المنال.

كان بدّ له أولاً من تحضير الرحلة، فأرسل برسكيلا وأكيلا اللذين أتياه بالأخبار الموثوقة (رو ١٦: ٣)؛ وكان من الضروري ثانيًا أن يتوحّد الناس حوله وحول انجيله، في وقت كانت الجماعة الرومانية مختلفة الآراء اللاهوتية، فأرسل لهم تعليمًا مسيحيًا أساسيًا ومبسّطًا، هو في الحقيقة ملخّص عن لاهوت بولس مع نضوج متجدّد. ففي حين كان ينتظر، في رسالته الى تسالونيكي، مجرّد عودة ممجّدة للمسيح، يؤكّد في رسائله الكبرى أن المسيح حاضر منذ الآن في عالمنا (رو ٥: ٦)، وأن الخلاص يتمّ الآن في من يعيش بحسب الروح القدس، بالايمان. شكّل موت المسيح وقيامته محورًا ايمانيًا أكيدًا: إنه الفصح الحق (رو ٣: ٢٤) الذي يُبرز قوة الحياة على الموت (رو ٧)، فصار الخلاص بالمسيح خلاصًا جماعيًا شاملاً للجسد الذي رأسه المسيح (١ كو ١٢: ١٢-١٣؛ رو ١٢: ٤-٨)... وبالتالي "من يفصلنا عن محبة المسيح؟" (رو ٨: ٣٥).

وأخيرًا، كان من الضروري أن يكون مدعومًا، فكان له ما أراد، على ما نقرأ في الفصل ١٦ من الرسالة من تعداد للأشخاص الفاعلين، الذين شكّلوا ضمانته عند الرومانيين.

ماذا بعد؟

من الممكن أن يكون بولس الرسول قد مثل سنة ٦٢ أو ٦٣ أمام الامبراطور نيرون أو أمام ممثّليه، لأن نيرون غالبًا ما كان يغيب عن روما، وأن يكون قد حصل على البراءة. يُظنّ بأن قام بعد ذلك برحلة رسوليّة الى اسبانيا، كما كان يرغب، وكان قد وضع لذاته خطّة وهدفًا: "*أَمَّا الآنَ ولَم يَبْقَ لي مَجالٌ عَمَلٍ في هذِهِ الأَقطار، وأَنا مُنذُ عِدَّةِ سِنينَ مُشتاقٌ إِلى القُدومِ إِلَيكم، فإذا ما انطَلَقتُ إِلى إِسبانِيَة فإِنِّي أَرْجو أَن أَراكُم عِندَ مُروري بِكُم وأَتَلَقَّى عَونَكم على السَّفَرِ إِلَيها، بعدَ أَن أَشْفِيَ غَليلي ولَو قَليلاً بلقائِكم. أَمَّا الآن فإِنِّي ذاهِبٌ إِلى أُورَشَليمَ لِخِدمَةِ القِدِّيسين... فإِذا قَضَيتُ هذا الأَمْرَ ... مَرَرتُ بِكُم وأَنا ذاهِبٌ إِلى إِسبانِيَة*" (رو ١٥: ٢٣-٢٨).

هذا ما يؤكّده الأسقف كليمان الروماني في رسالته إلى الكورنثيين في نهاية القرن الأول، بقوله أن بولس بشّر بالإنجيل حتى نهاية الأرض، وهو ما تؤكّده بعض الكتب المنحولة.

حتى آخر أيامه عاش بولس مجاهدًا للوصول الى الرب والاتحاد به نهائيًا فهو من أكّد: ""*إِنِّي لا أَعْدو على غَيرِ هُدًى ولا أُلاكِمُ كَمَن يَلطِمُ الرِّيح، بل أَقمَعُ جَسَدي وأُعامِلُه بِشِدَّة، مَخافةَ أَن أَكونَ مَرفوضًا بَعدَ ما بَشَّرتُ الآخَرين... يَهُمُّني أَمرٌ واحِد وهو أَن أَنْسى ما ورائي وأَتَمطَّى إِلى الأَمام فأَسْعى إِلى الغاية، لِلحُصولِ على الجائِزَةِ الَّتي يَدْعونا اللّهُ إِلَيها مِن عَلُ لِنَنالَها في المسيحِ يسوع... وقَد أُعِدَّ لي إِكْليلُ البِرِّ الَّذي يَجْزيني بِهِ الرَّبُّ الدَّيَّانُ العادِلُ في ذلِكَ اليَوم، لا وَحْدي، بل جَميعَ الَّذينَ اشْتاقوا ظُهورَه*" (١ كو ٩: ٢٦-٢٧؛ فيل ٣: ١٣-١٤؛ ٢ تيم ٤: ٨).

بعد هذه الرحلة ربما يكون بولس قد عاد إلى **روما** في نهاية تموز سنة ٦٤، حيث شهد حريق هذه المدينة. هذا هو بولس الخارق. بعد أن أسس الكنائس في آسيا واليونان، يرى أنه عاطل عن العمل ويريد الذهاب الى إسبانيا. هذا ما قام به، بحسب التقليد الشفهي والمكتوب. وما لا يخبرنا اياه الكتاب المقدس في سفر أعمال الرسل أو الرسائل اليولسية، يخبرنا به التقليد، ولا زالت إسبانيا حتى اليوم، تعتبر القديس بولس رسولها، الى جانب الرسول يعقوب. بعدما تسبّب حريق روما بحملة اضطهاد ضد المسيحيّين الذين اتُّهموا بالمؤامرة ضد المدينة، ذهب بولس، برفقة تيموتاوس، إلى أفسس في بداية سنة ٦٥ وتركه هناك وذهب إلى **مكدونية** : "*طَلَبتُ مِنكَ، وأَنا ذاهِبٌ إِلى مكِدونِيَّةَ، أَنْ تَبقى في أَفسُسَ لِتوصِيَ بَعضَ النّاسِ أَنْ لا يُعَلِّموا تَعاليمَ تُخالِفُ تَعاليمَنا*" (١ تيم ١:٣). من مقدونية توجّه بولس إلى **كريت** في رسالة تبشيريّة مع تيطس، ثمّ مضى للشتاء ٦٥-٦٦ في **نيكوبوليس**، ""*تَرَكْتُكَ في كريتَ حتّى تُكمِلَ تَدبيرَ الأُمور*" ... (تيط ١:٥ و ٣:١٢).

استشهاد بولس

كان بولس يعلم بأنه سيموت شهيدًا (٢ تيم ٤:٦). بعد إتمام رحلاته الرسوليّة اقتيد بولس، بحسب نص لوقا، ليمثل أمام الامبراطور كاليغولا. لكن أُطلق سراحه بعد سنتين، فعاد ليقوم برحلات تبشيريّة جديدة في **الشرق واليونان واسبانيا**" ربما كان توقيفه الثاني عند كاربس في **ترواس**، فذهابه دون ردائه ودون كتبه يبدو ذهابًا سريعًا دون تحضير: "*اُحْضِرْ عِندَ مَجيئِكَ عَباءَتي الّتي تَرَكتُها في تَرواس عِندَ كارْبُسَ، وأَحضِرِ الكُتُبَ أَيضًا، وبُخصوصًا مَصاحِفَ الجِلْدِ*" (٢ تيم ٤:١٣). سُجن في روما مرّة جديدة، تحت حكم الامبراطور طيباريوس، ومَثَل مرة أولى أمام المحكمة التي طلبت استكمال التحقيق. كانت هذه المحاكمة صعبة على الرسول: "*ما وقَفَ أَحدٌ مَعي عِندَما دافَعْتُ عَنْ نَفسي لأَوَّلِ مَرَّة، بَلْ تَركوني كُلُّهُم. صفَحَ اللّهُ عَنهُم! لكِنَّ الرَّبَّ وقَفَ مَعي وقوّاني فتَمكَّنْتُ مِنْ إعلانِ الدَّعوَةِ لِتَسمَعَ جميعُ الأُمَمِ، فنَجَوتُ مِنْ فَمِ الأَسَدِ*" (٢ تيم

١٦:٤–١٧). لم يكن إلى جانبه سوى لوقا. لكنه كان على تواصل مع كنيسة روما المحليّة، فكتب إلى تيموتاوس:: *"تعالَ إليَّ سريعًا، لأنَّ ديماسَ تَرَكَني حُبّاً بِهذِهِ الدُّنيا وسافَرَ إلى تَسالونيكي، وسافَرَ كِريسِكيسُ إلى غلاطيَّةَ وتيطُسُ إلى دِلْماطيَّةَ، وبَقِيَ لوقا وحدَهُ مَعي. خُذْ مَرقُسَ وَجِئْ بِهِ لأنَّهُ يُفيدُني كثيرًا في خِدمَةِ الرَّبِّ. أمَّا تيخيكُسُ فأرسَلتُهُ إلى أفسُسَ"* (٢ تيم ٤:٩–١٢).

في سجنه، كما في رحلاته الرسولية؛ في أتعابه كما في أفراحه؛ في نجاحه كما في اختباره الفشل... عاش بولس الاتحاد بالله في الصلاة. صلاته العميقة الواثقة وحدها جعلت منه القوي الذي لا يُغلَب ولا يتراجع (أف ٣: ١٤–٢٠). مَثَل مرة ثانية أمام المحكمة سنة ٦٧، وحُكم عليه بالعقوبة القصوى.

يخبرنا كتاب "أعمال بولس المنحول" بأن بولس استُشهد بعد إدانته بالسحر والشعوذة، وحُكِم عليه بقطع الرأس، كما يليق بمواطن روماني. ربما كان ذلك سنة ٦٧. في استشهاده، وصل بولس الى ما طمح اليه وما آمن به طيلة حياته، هو الذي أعلن عاليًا: *"لِذلكَ فَنحنُ لا تَفتُرُ هِمَّتُنا: فإذا كانَ الإنسانُ الظَّاهِرُ فينا يَخرَب، فالإنسانُ الباطِنُ يَتَجدَّدُ يَومًا بَعدَ يَوم... فإنَّنا لا نَهدِفُ إلى ما يُرى، بل إلى ما لا يُرى. فالَّذي يُرى إنَّما هو إلى حِين، وأمَّا ما لا يُرى فهو للأبَد ... ونَحنُ نَعلَمُ أنَّه إذا هُدِمَ بَيتُنا الأَرْضِيّ، وما هو إلاَّ خَيمَة، فلَنا في السَّمَواتِ مَسكِنٌ مِن صُنعِ الله، بَيتٌ أَبَدِيٌّ لم تَصنَعْه الأَيْدي... ولِذلكَ نَئِنُّ مُثْقَلينَ ما دُمْنا في هذِهِ الخَيمَة، لأَنَّنا لا نُريدُ أَن نَخلَعَ ما نَلبَس، بل نُريدُ أَن نَلبَسَ ذاك فَوقَ هذا، حَتَّى تَبتَلِعَ الحَياةُ ما هو زائِل. والَّذي أَعَدَّنا لِهذا المصير هو اللهُ الَّذي أَعطانا عُربونَ الرُّوح"* (٢ كور ٤: ١٦، ١٨؛ ٥: ١، ٤–٥).

صورتان للقديس بولس!

إنه بولس الرجل الشغوف الجذّاب الذي استطاع هداية الآسيويين ثم المقدونيين والغلاطيين والكورنثيين الى المسيح. وهو بولس رئيس الكنيسة السجين، الذي يعلم بأنه خسر المعركة ضدّ المتهوّدين، بالرغم من قناعته بما قام به تجاه الوثنيين، فجعل من همّ مصالحة المسيحيين مع الله ومع بعضهم البعض همّه الأول.

صورتان للقديس بولس! تعكسان مفهومين لانتصار الانجيل: مفهوم أول يعكسه كتاب أعمال الرسل، يرى في الانجيل قدرة الله التي تتجلّى بالعجائب واللآيات والاهتداءات...، ومفهوم آخر عكسه بولس في رسائله يعتبر أن الانجيل هو الكرامة التي تظهر في الضعف، والرجاء الثابت في قلب الموت.

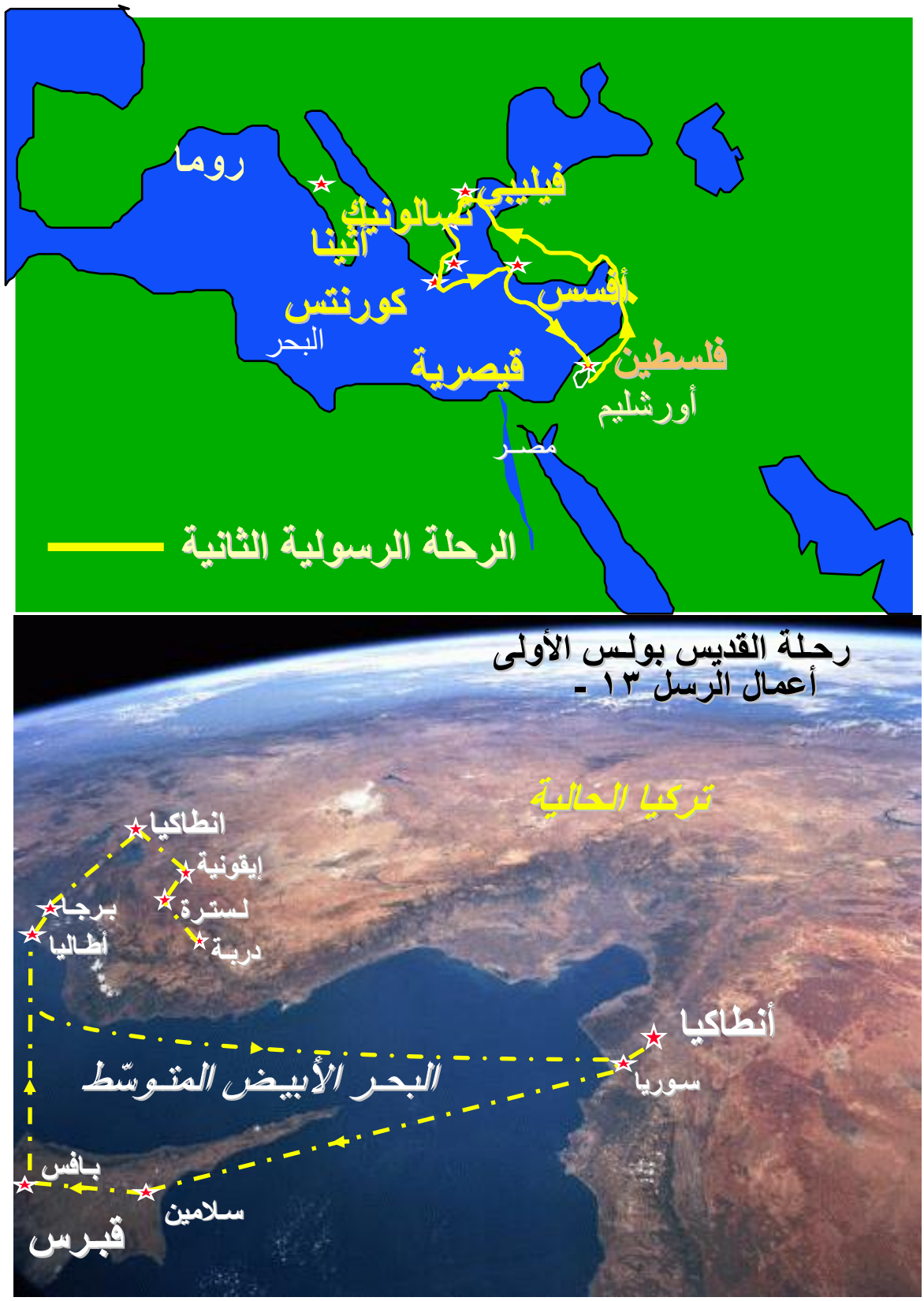
روما
فيليبي
تسالونيكي
أثينا
كورنتس
البحر
أفسس
قيصرية
فلسطين
أورشليم
مصر
الرحلة الرسولية الثانية
رحلة القديس بولس الأولى
أعمال الرسل ١٣ -
تركيا الحالية
انطاكيا
إيقونية
لسترة
دربة
برجة
أطاليا
أنطاكيا
سوريا
البحر الأبيض المتوسّط
بافس
سلامين
قبرس

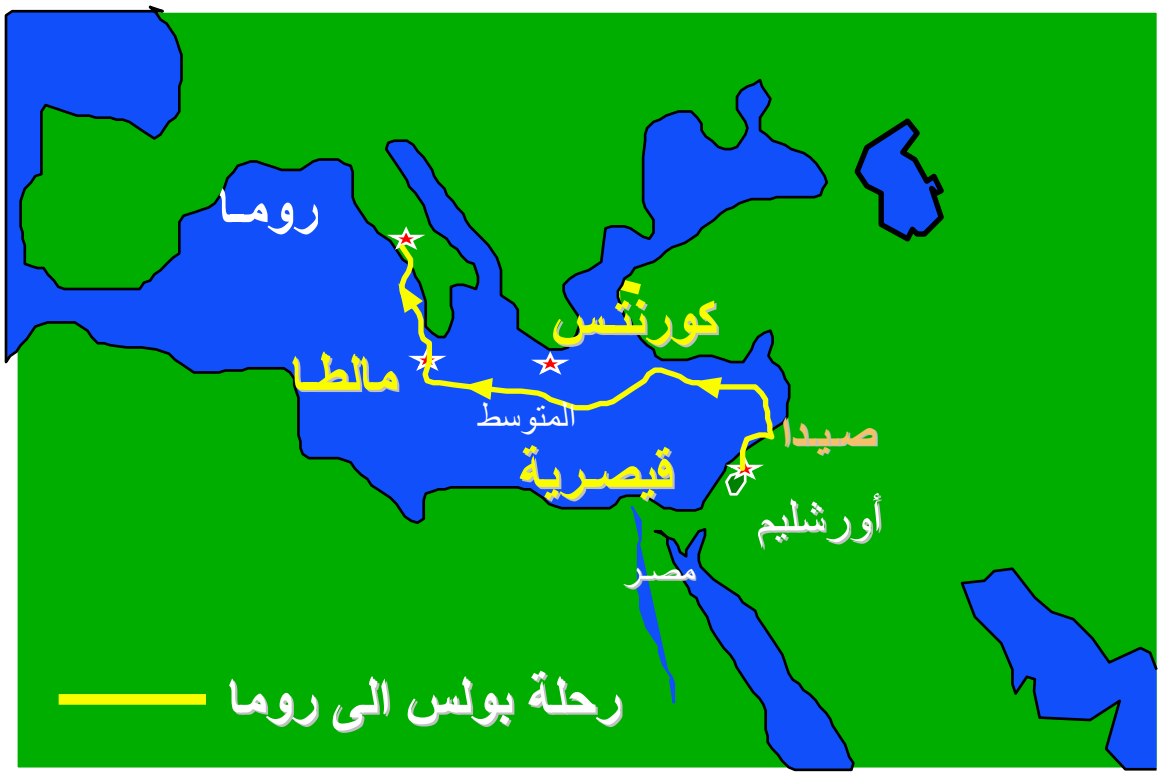
روما
كورنتس
مالطا
المتوسط
صيدا
قيصرية
أورشليم
مصر
رحلة بولس الى روما

روما
فيليبي
تسالونيكي
أثينا
انطاكيا
أفسس
كورنتس
البحر المتوسط
صور
قيصرية
أورشليم
مصر
الرحلة الرسولية الثالثة